على طريق الأصالة

(٤٢)

الاسلام فى مواجهة الفكر الوافد

أنور الجندى

الإسلام فى مواجهة الفكر الوافد

(١)

مع تصاعد المد الإسلامى واتساع نطاق الصحوة الإسلامية تضغط القوى المعادية بشدة وتوسع حملتها وتحشد قواها فى مختلف الميادين ظنا منها أنها قادرة على ضرب هذا التقدم نحو الفقه الإسلامى الأصيل ولقد تواترت الحملات واتسع نطاقها مما يستوجب حصرها والتعريف بها وتقديمها فى هذه جامعة حتى تبين للمثقف المسلم مدى خطرها وقوة نفاذها، علما بأن مخطط الغزو الفكرى يعمل دائماً على تفريق الضربات على الميادين المتعددة والمراحل المختلفة حتى تبدو كل ظاهرة وكأنها شيء مختلف أو غير مرتبط بالهدف الكبير الذى يكمن وراء هذه الظواهر، ولكننا يجب أن نكون قادرين على معرفة أبعاد الخطر بنفس الأسلوب الذى يتحرك به من خلال النظرة الجامعة لساحة الأمة الإسلامية كلها، مهما تباعدت أجزائها فقد أوصانا الإسلام بالنظرة الجامعة إلى خطر الأعداء الذى يعتمد على تجزئة الأمور لتضليلنا عن وجهته وغايته، وعملية التجزئة هذه من أكبر أهداف خصوم الإسلام وقد كان أول ما بدأ به هو تجزئة (الوحدة الإسلامية : الفكرية والسياسية) بالدعوة إلى القوميات والإقليميات حتى يستطيع أن يقتنص الفريسة بعد انفصالها عن أختها (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)

ومن هنا كانت المحاولة الأولى لتثبت قواعد النفوذ الأجنبي هي : تمزيق وحدة الأمة الإسلامية إلى مناطق منفصلة ، تعاد إلى تاريخها القديم قبل الإسلام باحياء تاريخ الجاهلية وأجناسها وعاداتها وتقاليدها وذلك لفصلها عن الوحدة الإسلامية الفكرية الجامعة واحياء تاريخ الفينيقية والفرعونية والاشورية والبابليـــة وغيرها .

وقد جرت محاولات واسعة في هذا الإتجاه وفشلت فشلا ذريعا لأنها لم تجد من النصوص الأدبية أو التاريخية ما يمكن أن يشكل رصيدا يعتمد عليه أو لغة تتصل به إلا من بعض أساطير وخرافات الفلكلور القديمة الساذجة التي تمثل طفولة البشرية ، ولكن النفوذ الأجنبي المعاصر الذي يرمي إلى احتواء الأمة الإسلامية وصهرها في بوتقة السيطرة والقضاء على شخصيتها الذاتية وتميزها الخاص لم ييأس وذلك بالعمل في ميادين أخرى متعددة أبرزها أحياء مؤامرات القرامطة والزنج والباطنية على أنها حركات عدل وحرية وقد جرى التغريبيون بتوجيه من القوى الغازية فأنشأوا دراسات كثيرة وأطروحات في الجامعات حول هذه الفرق الباطنية المتآمرة على الكيان الاسلامي ثم ذهبوا يحاولون تفسير وقائع التاريخ الإسلامي وفق مفاهيم وافدة ويحكمون فيها منهجا غير منهجها الأصيل ، يفرغونها من وهجها القوي الغالب ، ويطفئون نور بطولاتها ويسلبونها إلى

التفسير المادى للتاريخ الجاف المظلم وذهبوا يصورون الفتح الإسلامى الذى قدم فيه أبطال المسلمين أرواحهم رخيصة من أجل اخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، على أنه كان من أجل الطعام ثم ذهبوا يقولون بأن العرب كانوا مستعدين للنهضة وأن مهمة النبى لم تزد على أنه نهض بهم فنهضوا وهذه مقولة مضللة من المقولات التى طرحها المستشرقون على تلاميذهم القادمين من الشرق ثم ذهبوا بعد ذلك إلى تصوير الإسلام بصورة للنهضة المرحلية التى أدت دورها وانتهت ثم عهدوا إلى تاريخ الإسلام فاغضوا عن جوانب القوة والبطولة والكرامة التى يزخر بها ووقفوا عند بعض الخلافات والصراعات (التى تمر بها جميع الأمم) ووسعوا فى عرضها فى محاولة لتصوير تاريخ الإسلام على أنه يتسم بالتضارب بين القادة والحاكمين .

* * *

وكانت أخطر دعواتهم إلى نبذ الماضى جملة واثارة حملات الانتقاص إلى التاريخ والتراث الإسلامية ، وإحياء الفلكلور والتراث الوثنى القديم السابق على الإسلام والذى قضى عليه الإسلام ولم يعد يملك أى وسيلة تمكن له من الانبعاث مرة أخرى بعد أن تحطمت قواعده الوثنيـــة .

وجرى اتجاه التغريب إلى مهاجمة الشعر العربى والفصاحة العربية

والخطابة ومهاجمة البيان العربى ولغة القرآن من خلال إحياء لغة وسطى وإحياء العاميات ودراستها فى مجامع اللغة، ومن أبرز دعوات التعريب فى هذا المجال فرض التقسيم الغربى للعصور التاريخية على تاريخ الإسلام فى نفس الوقت الذى يختلف فيه المفاهيم اختلافاً شديداً فإن فترة العصور الوسطى المظلمة فى الغرب كانت فى عالم الإسلام عصور النور والتقدم التى حملها الإسلام إلى مناطق شاسعة امتدت من حدود الصين إلى شواطىء الغرب.

كذلك فمن أخطائهم الادعاء بأن الفكر العالمى هو الفكر الغربى ومحاولة وضع الثقافات المختلفة موضع التبعية، أو تقسيم شعوب العالم إلى فئات وأجناس عليا وأجناس دنيا.

والادعاء بوجود حضارة واحدة للعالم كله هى الحضارة العربية، ومن ذلك قولهم إن تخلف الأمم يرجع إلى أسباب عقلية وخصائص عامة فى عقلية تلك الأمم. وقد كشف الفكر الإسلامى على فساد هذه المقولات المستمدة من السيطرة الغربية فى مجال السياسة العالمية. ومن الناحية العلمية ثبت فساد نظريات التفوق المرتبط باللون الأبيض وتبين أن دعاوى الغرب كلها تستمد من مفهوم روما القديم:

(روما سادة وما حولها عبيد)

* * *

إن أخطر الأخطاء التى توجه إلى الإسلام من خصومة هى محاولة

تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه ، ذلك أن الإسلام لم يكن مجرد دين بمفهوم اللاهوت الغربي بل هو طريقة في الحياة ومنهاجاً واضحاً عني بكل ناحية من حياة الفرد منظماً سلوكه الاجتماعي والخلقي والقانوني، رابطاً بين الحياة الدنيا والآخرة ، جامعاً بين العقل والقلب ، موثقاً بين العلم والعمل والتوحيد هو الأساس الأولى للإسلام وهو المحرك الأول للفكر الإسلامي ، وهو يعلي من شأن الإنسان ويجعله مريداً قادراً تحت إرادة الله ، من خلال مسئولية فردية وجزاء أخروي .

وقد عمل الإسلام على تحرير أهله من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ودعا إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصلية للعقيدة والمزاج النفسي ، ولا ريب أن الطريق الوحيد الذي يحفظ ذاتيتنا ووجودنا وكياننا هو الاعتصام بالقرآن والسنة القادرين على العطاء في حل جميع المتناقضات . إن الفكر الغربي اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة أو إيجابية ، فهو حريص على أن يبقيهم في دائرة ضعفهم وتخلفهم ، إنما يقدم لهم صراع المذاهب الفكرية ليفت من عضدهم ويمنع عنهم العلوم التجريبية والتكنولوجية حتى لا يتقدموا ويمتلكوا إرادتهم .

إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلابة ولكنها زائفة لأنها تخفي في أعماقها احتقار الثقافات الإنسانية ومعناها الحقيقي (سيادة) الثقافة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم وثقافاتها ، ولقد ظل كفاح

المسلمين مستمراً على مدى الأجيال فى سبيل حماية الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفات الوافدة والنظريات المادية والوثنية .

(٢)

إن أخطر معطيات الفكر الغربى هى الانشطارية ، هذه الانشطارية هى الفصل بين القيم عامة وبين الأخلاق والقيم من ناحية أخرى حيث تتجرد السياسة والتربية والاجتماع من العنصر الأخلاقى .

وأخطر ما فى المناهج الغربية الوافدة أنها تتوزع دون أن ترتبط فى تكامل مع الإنسان الجامع بين قبضة الطين ونفخة الروح .

فترى علماء يدرسون الأخلاق فى عالم المثل وعلماء يدرسون الإنسان مجرداً عن الأخلاق ، وقد تبين للغرب اليوم خطأ غياب هذا البعد الأخلاقى ومقدار ما جره من آثار فادحة على المجتمعات والحضارة الغربية .

* * *

لا ريب على المفكرين المسلمين أن يفكروا بلغتهم ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا فى الطريق الوحيد الذى تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل .

وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية

الثقيل وحررهم من منهجها العبودى الوثنى وأن ذلك يفرض عليهم أن يحطموا قيد المادية فى العصر الحديث ، وعلى المسلمين أن يفرقوا بين (الأصيل) و (البديل) وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق فى مواجهة الأصيل الذى لا يجد طريقه فى زحمة الباطل .

إن تمجيد العقل وتقديسه وجعله سبيلا واحداً فى البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلا ، ذلك أن منهج الإسلام يجمع بين العقل والوجدان وعبرة التاريخ وحقائق الفطرة .

وليذكر المسلمون أن الإسلام حررهم من ركام الفكر القديم ووثنياته واضطرابه وأخطائه ، فإذا كان فى الفكر القديم أى ضياء من نور فإنما جاءها من رسالات السماء ، وقد أعاد الإسلام تشكيله من جديد على صورة مضيئة ربانية وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به كذلك فقد رفض الإسلام مبدأ (التقليد) ومبدأ (التبعية) فالتقليد يمنع الإصالة والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية ، والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً .

* * *

إن هناك صيحة تسخر مما تسميه (العقائد الموروثة) وهى كلمة يراد بها الغض من شأن الأديان والقيم التى جاءت بها رسالات السماء .

ولا ريب أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف . وهى فى إطلاقها دون تحديد ، إنما تريد بالتمويه أن تخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن العقائد الموروثة كلها زائفة .

والحق أن العقائد الأصيلة غير العقائد الزائفة وأن هناك عقائد زائفة جديدة هى فى ذاتها نتاج عقائد موروثة .

ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء بالحق إنما كان حجة على العقائد الموروثة الزائفة وقد كشف عنها ودحضها فى قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً .

ولا شك أن كل ما يقدمه لنا خصوم الإسلام ويتعارض مع فطرتنا ومع روحنا وطابعنا وقيمنا الأصيلة فهو زائف مرفوض وإن بدا براقاً لامعاً .

أما الإســـلام وحقائق عن التوحيد والنبوة والغيب والبعث والجزاء فلن تكون أبداً عقائد موروثة على النحو الذى يقصد إليه دعاة التغريب .

* * *

كذلك فهناك دعوى إلى إعادة النظر فى كل المسلمات وما اصطلح الناس على أنه نهائى ومطلق .

والحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل فقد أصبحت الوثنيات الآن هى المسلمات الجديدة . أما المسلمات التى ترمى إلى القول بأن الدين هو نتاج عصر انتهى ، فهل من الممكن أن يقال عن الإسلام أنه من هذا القبيل .

إن الإسلام يختلف كثيراً عن ما وجه فى الغرب إلى الأديان البشرية أو ما وصل إليها مما ليس هو الدين المنزل الموحى به ، والإسلام يختلف ويتميز فى موقفه من الانسان ومن العلم ومن الحياة ، فقد كان عطائه فى هذه الميادين أكثر إيجابية وتقدماً .

والحق إنه ليست هناك مسلمات اصطلح الناس على إنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله تبارك وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وليس غير الإيمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء رسالة بعد رسالة فى حلقات متصلة كان خاتمها الإسلام وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وليس غير الإيمان بالملائكة والنبيين واليوم الآخر والبعث والجزاء ، فهل هذه المسلمات التى أقرتها الأديان وأقرها الاسلام بصفة نهائية ومطلقة يمكن أن يكون موضع شك أو شبهة أو محاولة لإعادة النظر .

إن القائلين بهذه الصيحة قد أعلنوا عن حقيقتهم إن الاسلام فيما عدا هذه الحقائق يدعو إلى النظر فى كل ما يقدم ولا يقبل أى مسلمات مفروضة كالوجودية والعلمانية والفرويدية والنظريه المادية فتلك هى المسلمات الزائفة التى تحتاج إلى اعادة النظر .

* * *

وهناك صيحة تقول : إن البشرية بلغت رشدها فهى ليست فى حاجة إلى وصاية الأديان .

فهل حقاً بلغت البشرية رشدها ولم تعد فى حاجة إلى توجيه الدين الحق .

ونحن نسأل ما هى القيم الجديدة التى أغنت البشرية عن هداية الدين ، هل هى الفساد الخلق أم حشد القوى الذرية المهلكة أم ترك الجماعات تعصف بالفقراء بينما تزداد أموال المرابين أضعافاً مضاعفة .

ثم إن هذا التقدم المادى قد جاء على حساب النفس البشرية وضد ارتفاعها أو تقدمها الأصيل ، إن التقدم المادى قد زاد نسبة الانتحار والفساد الاجتماعى ، وحطم كل المعنويات وجعل البشرية بعيداً جداً عن طريق الله .

ولعل البشرية لم تكن فى عصر من عصورها أشد حاجة إلى توجيه الدين ورعاية السماء منها اليوم وهى تمر بأسوأ مراحل فساد حضارتها .

لقد ظن الإنسان أنه قادر على أن يمضى فى طريقه فلم يجد إلا الظلمات تكتنفه من كل جانب ولم يعد له ضياء يهتدى به إلا أن يلجأ إلى نور الله فهو وحده القادر على اخراجه من الظلمات .

لابد أن يعود الانسان إلى طبيعته الحقيقية الجامعة من المادة والروح وأن يبدأ المسيرة من جديد من خلال الحقيقة الأساسية : الايمان بالله تبارك وتعالى والتماس منهجه فى حركة الحياة .

هذا وبالله التوفيق ؟

رقم الإيداع ٨١٥٢ / ١٩٩٠